فكاهات

المحكمة السرّية

كان في مدينة باريز بين قضاة محكمتها العليا فتى يسمى راعول لم يبلغ الثلاثين عاماً من سنيهِ ربّاهُ والداهُ احسن تربية ولقناهُ مجمل العلوم. وكان منذ طفوليتهِ تظهر على وجههِ الجميل علامات الحذق والذكآء وتوقد الخاطر فاذا وُجد بين رفقآئهِ من الغلمان ادرك الناظر لاول وهلة انهُ لا يختلط معهم في العابهم الصبيانية بل يوجه افكارهُ الى غاياتٍ اسمى وخواطر ارفع . ورأى والداهُ ذلك فتيقنا ان لولدهما مستقبلاً حسناً في بلادٍ لا تجهل قيمة افرادها وكانا من المثرين فلم يدّخرا وسعاً في الانفاق عليهِ وتسهيل السبل لهُ لنيل العلوم والمعارف . و بعد ما خرج من المدرسة وهو في الثامنة عشرة من العمر اصيب في والديهِ فتوفي ابوهُ اولاً و بعد اسبوع توفيت والدتهُ ايضاً فبقي وحيداً لا اهل لهُ ولا معين . غير انهُ تلقى هذه الصواعق المحرقة بصدر رحب ورزانة عجيبة فما انقضت مدة حزنهِ حتى عمد الى املاك ابيهِ وثروتهِ الطائلة فوسع املاكهُ واصلحها واقام العمال الامنآء ولبث ساهراً على اعمالهِ وعمالهِ بغاية التيقظ والانتباه

وكان راعول قد اتبع فن المحاماة فنبغ فيهِ وطار صيتهُ في اقطار فرنسا و بعد حين انتدبتهُ الحكومة فعينتهُ قاضياً في المحكمة العليا . وما عتم ان رأى اختلالاً في بعض اعمالها فنقح دستورها وضبط قوانينها وعمد الى اصلاحاتٍ جدية رأى الجميع اصابة رأيهِ فيها فوافقوهُ على اثباتها . وما بلغ الثلاثين من عمرهِ حتى انتخب رئيساً لنفس المحكمة مع ان اكثر القضاة المؤلفة منهم كانوا اكبر منهُ سنّاً الا انهُ كان اوفرهم ذكآءً واوسعهم علماً

---

(١) معربة عن الفرنسوية بقلم نسيب افندي المشعلاني

وكان راعول من اصدق الناس نظراً في الامور واكثرهم تثبتاً في الاحكام فكان اذا القيت اليه مسئلةٌ يتلبث قليلاً قبل ابدآء رأيهِ فيها حتى يحيط بجميع وجوهها فاذا نطق بحكمهِ لم يمكن ان يرجع فيهِ ولم يكن ذلك عن تصلبٍ في رأيهِ بل لان حكمهُ كان من اول وهلة يصيب كبد الصواب . وهكذا ثبت راعول في مركزهِ لا يهاب شيئاً ولا يخاف ان يقهرهُ احدٌ سوى عدوٍّ واحد هاجمهُ بغتةً فاخترق صفحات صدرهِ الفولاذية واستولى على حصن قلبهِ فاستقرّ فيهِ وهذا العدوّ هو الحب . فان راعول كان قد رأى يوماً ابنة احد الاعيان في مجتمعٍ فاعجبهُ جمال وجهها واعتدال قوامها ولم يحتج راعول الى اكثر من ذلك الوقت لانتقاد سلوكها وآدابها ومعارفها فوجدها لا تبارَى بين بنات جنسها فمال بكليتهِ اليها وشعرت الفتاة بميلهِ وكان عندها اضعاف ذلك مما لم يخفَ على راعول ففاتحها بما في نفسهِ ولم تمضِ ايامٌ كثيرة حتى خطب الفتاة ودعا عدداً من اصدقآئهِ فقضوا ليلةً من اصفى ليالي الدهر دام فيها تعاطي كؤوس المسرات والمخاصرة الى الصباح

ولم تؤثر حالة راعول الحبية في واجباتهِ القضآئية فكان اذا عمد الى عملهِ ينسى الحب والحبيبة ويشمر عن ساعد الحزم والعمل فاذا فرغ من شغل نهارهِ عاد الى مراجعة التقارير الواردة اليهِ عن اشغالهِ الخصوصية ثم يقضي شيئاً من الوقت في النزهة وترويح النفس وفي النهاية يزور خطيبتهُ فيطارحها الغرام والشوق كانهُ عابدٌ ولهٌ

وبعد خطبة راعول بنحو شهرين كان عيد الميلاد المجيد فدُعي الى مأدبة اقامها اهل خطيبتهِ في منتصف تلك الليلة وهي عادة شائعة يتوارد المدعوون فيها الى محل الدعوة قبل نصف الليل ببضع دقائق حتى اذا تكامل عدد المدعوين وازفت الساعة الثانية عشرة قام الجميع يهنئون بعضهم بعضاً ثم دخلوا الى غرفة المأدبة يفتتحون سنتهم بالمسرات . وفي صباح ذلك اليوم نهض راعول وكانت لديهِ اشغالٌ كثيرة آثر القيام بها على كل شيء فصرف نهارهُ في العمل ولم يفرغ الا في الساعة الثامنة مساءً . فارتدى فوق ثيابهِ جبةً تقيهِ برد الليل وخرج قاصداً بيت

خطيبتهِ فاستقبلهُ خادمهُ وعرض عليهِ ان يطلب لهُ عربةً تقلهُ فاعاد نظرهُ في ساعتهِ وقال لا يزال امامي اكثر من ثلاث ساعات وانا اوثر المشي لاروض جسمي بعد جلوسي طول النهار ثم التفّ بعباءتهِ وضغط قبعتهُ فوق رأسهِ وسار

واجتاز راعول الشارع الاول الكبير ثم عطف الى شارع اصغر منهُ قد وُضعت فيهِ مصابيح بعيدة بعضها عن بعض وكان الضباب يستر نور المصابيح ثم همى الغيث واقفر الشارع فنظر راعول لعلهُ يجد عربةً يناديها ولكن لم يجد في كل الشارع سواهُ فصوّب خطواتهِ وجدّ في المسير . وما بلغ منتصف الشارع حتى سمع وقع اقدام مسرعة ورآهُ ثم ادركتهُ فتبين ثلاثة اشخاص فنظر لعلهُ يرى مع احدهم مظلةً يستتر بها معهم ولكنهُ قبل ان يفاتحهم بحديث هجم الثلاثة عليهِ و باسرع من البرق امسك اثنان بذراعيهِ وادخل الثالث في فيهِ منديلاً بطريقة غريبة تمنعهُ عن الكلام او ابداء اقل صوت وهمس احدهم في اذنهِ ان اتبعنا صامتاً مطيعاً واعلم انهُ عند اقل حركة مقاومة تبدو منك نتركك في هذا الظلام الحالك جثةً باردة . ورأى راعول ان الصمت والانقياد اجدر بهِ فسار بين الثلاثة كالنعجة الى الذبح . و بعد ما ساروا قليلاً قال احدهم اسمح لنا يا حضرة القاضي ان نعصب عينيك فانك تعلم بدون شك اننا لا نريد ان تعرف الى اين نحن سائرون . ولما قال هذا اخرج من جيبهِ منديلاً اسود عصب بهِ عيني راعول ومضوا في طريقهم صامتين . وما زالوا كذلك وهم يذهبون تارةً شمالاً وتارةً يميناً حتى وقفوا امام بابٍ فاعطى زعيمهم اشارةً سرّية ففُتح الباب ولما دخلوا تخلف اثنان منهم واقتاد الزعيم راعول بيمينهِ فصعد بهِ سلماً عدّ راعول درجاتهِ لانهُ مع ما هو فيهِ لم يفارقهُ تيقظهُ فعمد الى التقاط كل اشارة او حركة تبدو لهُ لعلها تنفعهُ في المستقبل . ثم دخل بهِ الى غرفة فاجلس الزعيم راعول على كرسيٍّ وقال لهُ لا بد انك استغربت عملنا هذا يا حضرة القاضي ويحق لك الاستغراب ولكنني اخبرك الآن اننا لسنا من اللصوص او القتلة كما لعلك توهمت فانك الآن في بيت من اشرف بيوت الفرنسيس وقد احضرناك جبراً لعلمنا اننا لو دعوناك طوعاً لما اتيت ولا سيما لاننا لا نريد ان تعلم مَن نحن

اما الغرض من احضارك فهو خدمةٌ تطلب قضآءها منك ربة المنزل وستتلوها هي عليك وبعد ذلك فحياتك او موتك رهن ارادتك انت . واني سارفع العصابة عن عينيك الآن وانزع المنديل من فيك فاياك اذا بقيت حيًّا ان تذكر ما ترى واياك ان يصدر منك صوت استغاثة فانهُ لا منزل بجوارنا الى مسافة نصف ميل . وزد على ذلك ان في المنزل من خدم ربتهِ عددًا ليس بقليل من شرسي الاخلاق اذا سمعوا ندآءك ربما اوقعوا بك قبل صدور الحكم عليك

ولما انهى الرجل كلامهُ رفع العصابة عن عيني راعول ونزع المنديل من فيهِ فرأى راعول نفسهُ في ظلمة حالكة السواد لا يقدر ان يرى فيها شيئًا ثم لمس الزعيم زرًّا كهربآئيًا فاضآء المكان ضوءًا خفيفًا جدًّا تمكن راعول بعدهُ ان يشاهد الغرفة فرآها ردهةً فسيحة جدًّا قد دُهنت جدرانها وسقفها وارضها بلون احمر مشبع وكانت خالية من كل مفروش او اثاث ما خلا الكرسي الجالس عليهِ وثلاث كراسيّ اخر على صفٍّ واحد امامهُ . وبينما هو غارق في تأملاتهِ وتصوراتهِ وما طرأ عليهِ في تلك الليلة وماذا يطرأ على خطيبتهِ اذا حلّ نصف الليل ولم يحضر اذا بباب سرّي قد فُتح في الحائط ودخلت منهُ فتاةٌ ورجلٌ يشبه الزعيم الاول في ضخامة بنيتهِ وتركيب جسمهِ . وتمكن راعول مع ضعف النور ان يراقب الفتاة فرأى قامةً كالخيزران وعنقًا كعنق الغزال ويدين يعجز امهر النقاشين عن تكوين مثلهما من الجبس الابيض . اما وجهها فكان يسترهُ برقع من الحرير الاحمر فيهِ ثقبان تظهر منهما عينان ولا عيون المها . فجلست الفتاة على كرسيٍّ وجلس الزعيمان عن يمينها وشمالها ثم خاطبت راعول بصوت لهُ رنةٌ ارعشت قلبهُ الذي لم يعرف الخوف قبلاً وشعر لاول مرة في حياتهِ انهُ في موقف مرهب عظيم . فقالت الفتاة انزع من فكرك يا حضرة القاضي راعول كل وجل وتأكد اننا لا نريد بك سوءًا البتة ولا نتجاسر على قتلك ما لم ترد انت ذلك

فقال راعول مبتسماً اؤكد لكِ يا حضرة السيدة انني لا اريد الموت الآن فاذًا انا في امان

قالت وعلى الخصوص ان خطيبتك في انتظارك قبل نصف الليل فعليك بانجاز الخدمة التي استقدمناك لاجلها عاجلاً كي لا تتأخر عنها

فنظر راعول نظر المتعجب وقال في نفسهِ يظهر ان القوم مطلعون على كل احوالي فما هي يا ترى الخدمة التي يريدون مني القيام بها . واتمت الفتاة حديثها فقالت تذكر يا حضرة القاضي انك صدّقت من بضعة ايام على تنفيذ حكم الاعدام شنقاً في شخص يدعى بول جارفيه المتهم بقتل ثلاثة اشخاص في ليلة ١٣ نوفمبر . فاعلم اذاً ان هذا الرجل بريء من التهمة المذكورة برآءتك انت منها وان كانت جميع قرائن الاحوال تدل على انهُ هو الفاعل . ولديَّ براهين دامغة وحجج قوية تثبت برآءة الرجل وشطط القضاة في الحكم عليهِ ولكنني لا استطيع ذكرها سرًّا ولا جهرًا صيانةً لمصلحة وعرض من يهمهم الامر . غير اني لا اريد ان يُقتَل الرجل ظلماً وقد رهنتهُ شرفي ووعدتهُ انهُ لا يُقتل . ولما كنت انت رئيس قضاة المحكمة العليا ولا مردّ لاحكامك فقد بثت عليك العيون من يوم صدور الحكم لاستحضارك الينا وانا اقسم لك بالشرف العظيم و بالاله العارف بكل شيء ان الرجل بريء ولا يجب ان يُعدم فصدّق كلامي واذ ذاك يساعدك ضميرك على الغاء الحكم ودع رجال النيابة والشحنة يبحثون عن القاتل الحقيقي

قال راعول هذا طلب المستحيل ايتها السيدة فان لنا قوانين لا يسعنا الا اتباعها ولا يكفي كلامي بدون البرهان لالغاء حكم قد قررتهُ المحاكم ووافقت عليهِ المحكمة العليا . اما اذا كانت الحقيقة كما تقولين فلا اسهل من المعارضة قبل انفاذ الحكم وتقديم البراهين التي تدحض التهمة واذ ذاك فتكونين قد قمتِ بوعدكِ وخلصتِ الرجل و بغير ذلك لا يمكن البتة الغاء الحكم . قالت انا اعلم كل ذلك ولكنني قلت لك ان هذا لا يمكن ايضاً ولا بد من ان تفعل كما توسلت اليك فمن كان نظيرك رجل فرنسا الوحيد في هذه الايام لا يصعب عليهِ ان يلغي حكماً بعد اقتناعهِ ببرآءة المتهم ولو كانت البراهين ضدهُ

قال قد قلت لكِ ان هذا مستحيل ولا يمكن ان اقوم بهِ . قالت اما انا فقد

وعدت الرجل المسكين بعد وعدي الاول انهُ اذا لم انجح ونفذ فيهِ الحكم فما يجري عليهِ ساجريهِ انا في محكمتي هذه عليك يا من واقفت على اعدام البريء ولم تستجب لصراخ الحق . ثم تغيرت نغمة صوتها فجآءةً وقالت يا راءول اما ان تحلف لي الآن بشرفك وتعدني كتابةً انك تلغي الحكم وتخلص السجين من عذاب الشنق وتخضع لامري هذا مذ الساعة واما ان تسجن هنا كما هو مسجونٌ هناك الى اليوم المعين فبينما هو يدخل رأسهُ في حبل المشنقة تكون حبال مشنقتي ملتفة على عنقك وتسقط جثتا كما في دقيقة واحدة . اني انتظر جوابك الآن فافتكر مليًّا وجاوبني نهائيًّا

وادرك راءول عظم الخطر وقرأ في صوت الفتاة التصميم التام فعلم ان لا مناص الا بخرق الشريعة الفرنسوية وخرق شرفهِ معها او الموت . ومرّت امامهُ في تلك الدقائق الهائلة تذكارات شتى وانبسطت امامهُ اشغالهُ الكثيرة وتعلقاتهُ الشخصية ثم املاكهُ الواسعة وغناهُ الوافر وانهُ ان مات فليس من يستولي على مقتنياتهِ اذ لا وارث لهُ ولا وكيل . ثم تجلت امام بصرهِ صورة خطيبتهِ وانها بانتظارهِ في تلك الليلة وماذا يؤثر عليها خبر اختفآئهِ في اليوم الثاني وكيف يفارق الدنيا وهو لم يقطف اول زهرة من شجرة الحب التي غرس اصولها الى غير ذلك من التصورات التي يعجز القلم عن وصفها . فاستغرق تأملهُ بضع دقائق ساد فيها السكوت العميق وكانت الالوان الحمرآء في ذلك النور الضعيف تزيد المكان رهبةً . ثم مرّت سحابةٌ مظلمة امام عيني راءول وتمثل في نفسهِ انهُ اذا انقاد لارادة هذه السيدة المجهولة فقد مركزهُ واضاع شرفهُ بخرق قانون بلادهِ وهو الذي عدّلهُ فما خطرت لهُ هذه الافكار حتى رفع بصرهُ الى الجالسين وصاح بصوتٍ تقطعهُ الانفعالات النفسانية وقال الموت ولا العار . كلا . لن اخضع لامركِ ايتها الحاكمة المطلقة التصرف في مملكتها هذه السودآء . وانني متحققٌ قيامكِ بوعيدكِ فاذا كنتِ كما تدّعين من اشراف الفرنسيس ويسهل عليكِ ان تري اكبر قضاة بلادكِ ينقض القانون العام فلا ادري اين يكون شرفكِ اذ ذاك . على انهُ اذا تمكنتِ

من اخماد صوت ضميرك والتغاضي عن شرفك الى ان تفرغي من تقديمي ضحية على مذبح غاياتك فاني استقبل الموت باسماً لانهُ يخلصني من الوجود بين اقوام هم في الظاهر من اسمى اشراف العالم ولكنهم في الباطن لا يُفرَقون عن قطاع الطريق

ولما سمعت الفتاة ذلك نهضت ووقف الزعيمان لها اجلالاً فقالت بصوت حادّ جهوري . انت الجاني على نفسك يا هذا فقد حكمت عليك ان نفعل بك كما سيفعل حكمك بذلك المسكين وسترى ان احكام محكمتي هذه ليست باقل من قوانينكم متانةً ولا اصعب منها تنفيذًا . ثم نظرت الى رفيقيها وقالت قد خرج الحكم من فمي فانظرا في تنفيذه

وكانت العظمة ترافق كلماتها والهيبة والجلال يرافقان مشيها حتى بلغت الحائط فانفتح لها من ذاته وتوارت عن العيان . ثم عمد الزعيمان الى راعول فارجعا العصابة على عينيه واقتاداهُ بيده فانزلاهُ في سلالم وسارا به في دهاليز عديدة الى غرفة اخرى اوصلاهُ الى صدرها وصعدا به ست درجات الى دكة خشبية فاجلساهُ على كرسيّ واوثقا يديه الى جانبيه ورجليه الى مقدم الكرسي ورفعا العصابة ثانيةً فرأى راعول نفسهُ في غرفة اكبر من الاولى وتختلف عنها بان الوانها سوداء ورأى في سقف الغرفة فوق رأسه حبلاً منصوباً بهيئة المشنقة فارتجفت اعضاؤهُ . وكان في الجانب الآخر من الغرفة نورٌ ضعيف ينبعث من كاس فيها فتيلةٌ قد غمست في الزيت وكان الهواء يلاعب نورها فتظهر على الحائط اشباحاً غريبة الشكل يؤلفها النور الضعيف . وبعد دقيقة دخلت الفتاة فتحصت وثاق راعول وكرسيهُ فحصاً مدققاً ثم تناولت الحبل المعلق فوق رأسه وادخلتهُ في عنقه وقالت لهُ انك الآن مثل ذلك المسكين وستبقى الى ان ينقضي اجلكما معاً وسيأتيك الطعام كما يقدمون لهُ وفي نفس اوقاته وسنتركك الآن وحدك مثلهُ لتناجي افكارك . واعلم ان في محكمتنا رحمةً اكثر مما عندكم فاذا شئت ان تغير عزمك وتفعل ما طلبت منك قبل حلول الاجل فما عليك الا ان تنادي فيسمعك الحاجب الذي خارج الباب ويبلغني رسالتك والا فستبقى هكذا الى يوم انفاذ الحكم فترافق روحك روح ذلك السجين

فانكما ستموتان معًا ظلمًا

ولما انهت كلامها خرجت وتبعها الزعيمان وأُوصد الباب فبقي راعول في تلك الحالة التي نترك وصفها لتصور القارئ اللبيب . وساد السكوت فلم يسمع سوى ضربات قلب راعول وزفرات انفاسهِ المتقطعة وعاودتهُ افكارهُ المختلفة وترآءت لهُ صور عديدة لكنها لم تثبط عزمهُ ولا حوّلت فكرهُ عن الاستشهاد في سبيل حفظ قانون بلادهِ وحفظ شرفهِ . ولما صمم على الموت وتاكد تقريرهُ جعل يفتكر في ما عسى ان تقول خطيبتهُ عنهُ وما سيكون اذا جآء اليوم الثاني ولم يعرف لهُ خبر وزادت عليهِ المؤثرات من كل جهة وكأن دماغهُ العظيم لم يعد يقوى على الاحتمال بعد شغل النهار وحوادث الليل والافكار التي تتوارد منها الوف في الدقيقة في مثل تلك الحالة وزاد عليهِ صوت ساعةٍ كبيرة في ذلك السكون التام فجعل يعدّ ضرباتها الى ان بلغت العاشرة فخالها رنة الحزن على شبابهِ وسُدِل على عينيهِ حجاب السكون فخدرت حواسهُ ونام غير النوم الطبيعي .

. . . . . .

وافاق راعول من غيبوبتهِ هذه على صوت فتح باب غرفتهِ واذا بالفتاة داخلةٌ يحفّ بها الزعيمان حتى اذا بلغت الدكة وقفت امام راعول وقالت بصوت يسحر الالباب يظهر يا حضرة القاضي ان نجم التوفيق ساهرٌ على حياتك . انني كنت قد صممت على ما مرّ بيننا في هذه الليلة ولكنهُ بلغني في هذه الساعة ان بول جارفيه قد يئس من الفرج وشك في صدق كلامي فانتحر . وعليهِ فقد صرتُ بريئةً من قسمي الذي اقسمتهُ لهُ وقد حمل باختيارهِ عنك وعنا متاعب اخرى وارخى بموتهِ الحجاب على ما حدث في ليلة ١٣ نوفمبر مما صار يجب نسيانهُ قطعيًا . وعليهِ ولكي تتحقق انهُ لم يكن لي غاية اخرى فيما فعلت فساطلق سراحك حالاً بعد ان تعدني وتقسم لي بشرفك انك تنسى جميع ما مرّ امامك في هذه الليلة وان لا تذكرهُ امام مخلوق ولا تحاول ان تبحث لتعرف شيئًا عن الاشخاص الذين وُجدت بينهم . و بالاجمال كأن هذه الساعات لم تمرّ عليك في حياتك قط فهل تتعهد وتعد بذلك . قال نعم .

فاخرجت الفتاة من جيبها كتاباً مجلداً بالذهب وعلى جانبيهِ الشعار الفرنسوي مرصعاً بالجواهر الثمينة فقالت هوذا الكتاب المقدس اساس دينك وهوذا شعار المملكة التي تدافع عنها وتقسم بشرفها فضع يدك عليهِ واتبعني في تكرار القسم الذي اتلوهُ عليك واختمهُ بتقبيل الكتاب والشعار . ثم حلت لهُ رباط يدهِ وانشأت تلقنهُ كلمات القسم وهو يرددها بوقار واحترام حتى اذا فرغ قبل الكتاب وهو لا يصدق بالنجاة . فتقدم الاثنان وحلا وثاقهُ وانزلاهُ عن كرسيهِ فقالت لهُ الفتاة ان خطيبتك تنتظرك قبل نصف الليل ولسوء الحظ قد اخرناك ولم يبقَ لديك سوى ربع ساعة الى الساعة الثانية عشرة ولكني قد امرت عربتي ان تقلك بمنتهى السرعة الى حيث يمكنك الوصول الى بيت خطيبتك . وقبل ان يتمكن راعول من النطق بكلمة معها خرجت تاركة الزعيمين للاعتناء بهِ . فامرهُ احدهما ان يعيد العصابة على عينيهِ ففعل واقاداهُ الى العربة فاركباهُ وركبا بجانبهِ وسارت العربة بهم مسرعة حتى بلغت ساحةً عمومية فاستوقفاها وانزلاهُ منها وامرا السائق بالرجوع ثم اكتريا عربةً اخرى اجلسا راعول فيها وقالا لهُ اذا سارت بك العربة فارفع العصابة واذكر القسم . ثم فارقاهُ

. . . . . .

وكانت خطيبة راعول واهلها والمدعوون بانتظارهِ وقد استاءوا من تأخرهِ ولا سيما وقد ابتدأت الساعة تقرع ضرباتها فما انتهت الثانية عشرة حتى فتح الباب ودخل راعول ولكنهُ كان اصفر الوجه وعلائم التهيج الشديد مرتسمةٌ عليهِ . غير انهُ تمكن للحال من تقديم بعض الاعذار عن تأخرهِ وقضى باقي ليلتهِ على اتم السرور كأن لم يكن شيء البتة

وحافظ راعول على قسمهِ فلم يعلم احد بما جرى الى ما بعد مماتهِ فوجدت زوجتهُ تفصيل الحادثة في مذكراتهِ الخصوصية وكانت الى ذلك الحين لا تزال تجهل السبب الذي اخرهُ عن الحضور في ليلة عيد الميلاد